مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الواحد و العشرون / ربيع الثاني - جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ ، مايو - يولية ٢٠٠٧م

٢١

- صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز تأريخ حضاري
- من أعلام المدينة المنورة : سعيد بن المسيب .
- المدينة المنورة في رحلة أبي سالم العياشي
- الشـــورى في العهد النبـوي

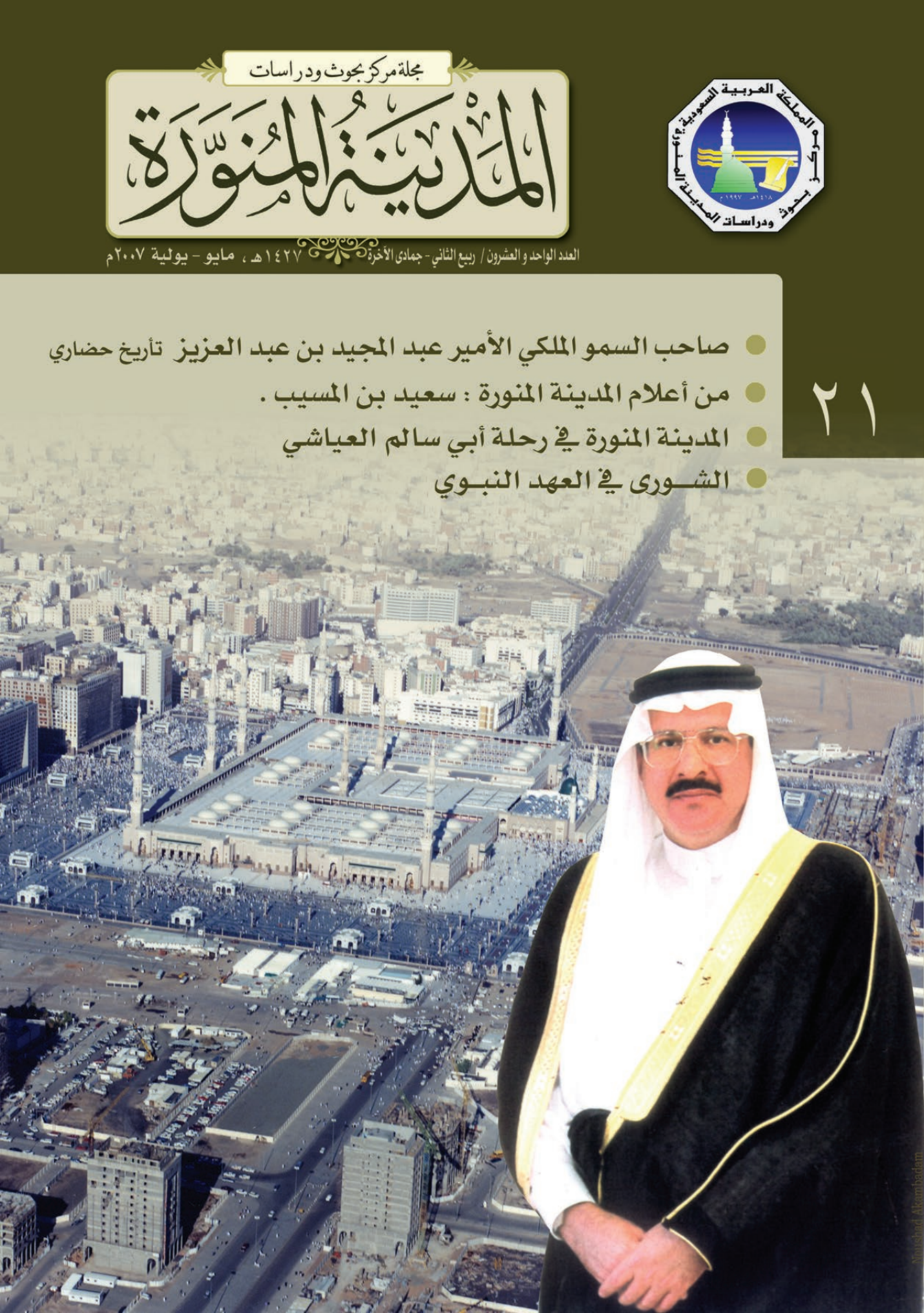

المدينة المنورة
في رحلة أبي سالم العياشي

أ. محمد القاضي
باحث من طنجة – المغرب

مدخل

يقول الأستاذ الباحث **عبد العزيز بن عبد الله**: "**لا يوجد في تاريخ الإنسانية موقع جغرافي حج إليه ملايين البشر مثل الجزيرة العربية، ولا يوجد موطن استقطب حس الإنسانية في طموحاتها الفكرية وتطلعاتها الروحية مثل الحجاز، الوطن الروحي الأول لكل مؤمن**" [1].

فقد دأب العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وكل من أنس في نفسه الاستعداد البدني والمادي في المغرب وعبر مختلف العصور على شد الرحال إلى هذه الأرض الطاهرة؛ لأداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي ومن ثم التشرف بالسلام على رسول الله ﷺ، وما كانت تمثله هذه الرحلة من مشاق ومخاطر سببها قسوة الطبيعة البالغة من جهة، وانعدام الأمن على الطرق من جهة ثانية، مما يصبح معه المسافر معرضاً للموت في كل لحظة، وقد دون العديد من العلماء والأدباء والفقهاء هذه الرحلات التي أطلق عليها (الرحلات الحجازية) وهي كثيرة في التراث المغربي.

---

(١) انظر مجلة دعوة الحق عدد: ١٩٨٦/٢٦١ م/ ص: ١١ (الرحلات الحجازية المغربية كشف لأمجاد الجزيرة العربية).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد ذكر **عبد الحي الكتاني** في تقريظه لصاحب كتاب "**دليل الحج والسياحة**" قائمة طويلة بمن رحل إلى الحج، واقتصر فقط على من اشتهرت رحلاتهم بين الناس، فعد منها أربعين رحلة حجازية، والأمرنفسه قام به باحثون آخرون أمثال الأستاذ **محمد المنوني** في مجلة (**المجمع العلمي العراقي**)[١]، ومجلة (**دعوة الحق**) [٢]،والدكتور **عباس الجراري** في مجلة (**المناهل**) المغربية [٣].

ولعل الذي ساعد في تنمية هذا الاهتمام ورعى هذه الرغبة في الرحلة عند المغاربة، هو الموقع الجغرافي للمغرب ببعده عن المشرق والحجاز من جهة، وإطلاله على القارة الأوربية من جهة ثانية. ويذكر ابن خلدون في المقدمة بأن رحلة المغاربة كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة[٤].

وحسب الأستاذ **محمد المنوني** فإن أول رحلة حجازية أندلسية هي التي دونها **ابن جبير** عن حجته التي بدأ السفر لها من غرناطة عام: ٥٧٨هـ/١١٨٢م. وأقدم الرحلات من العدوة المغربية يعود تاريخها إلى أواخر المائة الهجرية السابعة حيث سافر(ابن رشيد) متوجهاً من بلدته سبتة إلى

(١) عدد: ٢٩/ ص: ١٧٣ -١٧٥.

(٢) السنة ١٩ / عدد: ٥/ ص: ٢١ -٢٩.

(٣) عدد: ١٠/١٩٧٧م/ ص: ٤٤ -٦٦.

(٤) المقدمة ص: ٤٤٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

البقاع المقدسة من أواخر عام ٦٨٣هـ. تلتها رحلة ابن بطوطة المعروفة بتحفة النظار ابتداء من عام ٧٢٥هـ[١].

واتسمت الرحلات المدونة بالطابع العلمي التوثيقي كرحلات **العبدري والعياشي**، الذي قصد من رحلته أن تكون ديوان علم، لا كتاب سمر وفكاهة[٢]، وخص أصحابها مكة والمدينة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بأوصاف مهمة، تعتبر اليوم وثيقة مهمة لمعرفة حالة هذه الأماكن في فترات تاريخية مختلفة، يقول العلامة **حمد الجاسر**: " فإن علماء المغرب برزوا – على علماء المشرق - بما كتبوه عن الجزيرة في رحلاتهم للحج، بل بزّوهم في هذا الميدان . ويضيف: وليس من المبالغة القول بأن في رحلات ابن رشيد الفهري والتجيبي والعبدري والعياشي، والدرعيين أحمد بن ناصر ومحمد بن عبد السلام، ومن بعدهم إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، ما يعتبر من أوفى المصادر وأشملها وأوثقها في دراسة كثير من أحوال المدينتين الكريمتين (مكة والمدينة) الثقافية والاجتماعية والاقتصادية [٣].

المدينة المنورة في رحلات المغاربة

حظيت المدينة المنورة باهتمام خاص من طرف الرحالة المغاربة، وتزخر رحلاتهم بمعلومات مهمة ودقيقة عن الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والعمرانية، والأوضاع الاجتماعية، ووصف جغرافي للأماكن المهمة

(١) انظر مجلة المجمع العلمي العراقي ص: ١٥٣/ مرجع سابق.

(٢) انظر رحلة أبي سالم العياشي، (ماء الموائد)، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، الجزء الأول: ص: ٥. وسيشار له بعد الآن بالرحلة.

(٣) انظر مجلة المناهل المغربية عدد: ٣٣/ ١٩٨٥م / ص: ١٧٦-١٨٥ (ملامح التراث المغربي حول الجزيرة العربية).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كالمساجد والمزارات والآبار والأودية والجبال، ووقفوا كثيراً عند المسجد النبوي الشريف وخصائصه العمرانية، وخزائن الكتب العلمية الموقوفة عليه والتي احتواها المقام الشريف، كما أشاروا إلى التغيرات التي طرأت على المسجد خلال فترات تاريخية مختلفة، فابن جبير يصفه قبل أن يغير معالمه الحريق الذي نشب به عام ٦٥٤م[١]. أما ابن بطوطة في رحلته المعروفة (تحفة النظار)[٢]، والبلوي في رحلته (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق)[٣]، فقد وصفوه قبل أن يمسه حريق عام ٨٨٦هـ، وأساليب التدوين تختلف باختلاف مدونيها. ونستعرض في هذه المقالة رحلة العياشي.

العياشي ورحلته المعروفة (بماء الموائد).

طبعت هذه الرحلة على الحجر بفاس عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م في مجلدين بتصحيح خليل بن صالح الحسني الخالد، يضم الأول ٤٥٦ صفحة، والثاني ٤٢٢ صفحة، وتوجد نسخة مصورة بالأوفست للطبعة الحجرية صدرت بالرباط سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، وقد وضع فهارسها المرحوم الدكتور محمد حجي.

والعياشي هو أبو سالم عبد الله بن أبي بكر العياشي، ويعرف بعفيف الدين، ولد عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م بمنطقة آيت عياش، التي احتضنت الزاوية العياشية الشهيرة التي أسسها والده سنة ١٠٤٤هـ، لتكون مركزاً

(١) رحلة ابن جبير ص: ١٦٨ -١٧٣.

(٢) ابن بطوطة (تحفة النظار..) الجزء الأول ص: ٦٩ -٧٤.

(٣) البلوي (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) ص: ٢٠١ -٢٠٥.

من مراكز التربية الصوفية والعلم، وفي هذه الزاوية قضى أبو سالم العياشي أكثر عمره، كما تولى رئاستها بعد أبيه وسهر على تكوين رجالها علمياً وخلقياً إلى جانب التكوين الروحي.

قام أبو سالم العياشي بثلاث رحلات إلى المشرق في أعوام ١٠٥٩هـ و١٠٦٤هـ و ١٠٧٢هـ. فأخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة المنورة وفلسطين، فضلاً عن اتصالاته الوثيقة والمباشرة مع علماء ومتصوفة من طرابلس والإسكندرية والقدس، وتعد هذه الفترة أخصب مراحل حياته، فقد ساهم في الحركة الفكرية التي عرفها عصره في العلوم والآداب، فسجلت رحلته (ماء الموائد) -وهو الاسم الذي اختاره لوصف رحلته الثالثة -العلاقات الفكرية والاجتماعية بين المغرب والمشرق.

وتهدف الرحلة كذلك إلى تحقيق غاية معرفية وجغرافية مهمة، فاشتملت على العديد من الرسائل وملخصات الكتب في سائر المصنفات من علم الحديث إلى علم الحفر، والكثير من الأسانيد وعلم المسالك والممالك والأدبيات. فقد أراد لرحلته أن تكون ديوان علم. فلم يأل جهداً في ما أورد فيها من الفوائد لرغبة كثير من أصحابه في ذلك، وأن يكون القصد منها جمع الفوائد لا انتقاء الفرائد[1]. ويؤكد العياشي على هذا القصد قائلاً: "**وقصدي من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً فذاك أدعى لنشاط الناظر فيها سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل**

(١) انظر كتاب أبو سالم العياشي / المتصوف الأديب / الأستاذ عبد الله بنصر العلوي/ ص: ١٢٢ (مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ ١٩٩٨م).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شيء عنده موقع ونفع[١]. وفيها من عناصر الوصف الجغرافي الشيء الكثير، بحيث أصبحت مرجعاً هاماً لا يستغني عنه دارس لمنطقة أو بلدة وصفتها، وقد خص أرض الحجاز بوصف دقيق ومهم جداً لما ذكره من معلومات جغرافية وسياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.

المدينة المنورة في رحلة العياشي .

دخل أبو سالم العياشي المدينة المنورة ليلة الخميس الثانية من محرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف من الهجرة، ومكث فيها سبعة أشهر ونصف الشهر، قضاها في العبادة والتنسك، والوقوف على معالمها، ومطالعة ما كتبه عنها المؤرخون والرحالون وغيرهم، ومن أجل ذلك نقل في رحلته النقول العديدة المتعلقة بالموضوع، ومن الكتب التي اعتمد عليها في كتابته عن معالم المدينة الجغرافية والآثارية والتاريخية نذكر ما يلي: كتاب في حمى المدينة وجبالها وأوديتها للمدائني (توفي عام ٢٢٥هـ) ويعتبر كتابه هذا مفقوداً [٢]. وكتاب الدرة الثمينة في أخبار المدينة لابن النجار (توفي سنة ٦٤٣هـ)، وكتاب التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة للمطري (توفي ٧٤١هـ)، وكتاب النصرة في معالم دار الهجرة للمراغي (توفي سنة ٨١٦هـ)، وكتاب المغانم المطابة في معالم طابة للفيروزبادي (توفي ٨١٧هـ)

(١) الرحلة / الجزء الأول: ٢٢٤.

(٢) انظر كتاب (المدينة المنورة في رحلة العياشي) الأستاذ محمد أمحزون/ دراسة وتحقيق / دار الأرقم / الكويت ص: ٧٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأخيراً كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي (توفي سنة ٩١١هـ)، وقد اعتمد العياشي عليه اعتماداً كبيراً [١].

فبدأ بذكر المشاهد التي تزار بالمدينة، فكانت البداية عن البقيع وما احتوى عليه من مشاهد أهل البيت والصحابة والتابعين، وذلك بشكل دقيق ومحدد، مع معلومات كافية عن كل شخص من الشخصيات التي ذكرها، ثم انتقل للحديث عن مساجد المدينة المنورة وهي (١١) مسجداً فحدد موقعها، ومكانتها، وأهميتها، وصِلاتِها بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم بدءاً بمسجد قباء كأول مسجد بني في الإسلام، ومكانته في التاريخ الإسلامي، حيث روى مجموعة من الآثار في فضله، وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مبني بالحجارة المنحوتة، وهو خاص بالغرباء، وكان القيم بأمره هو الشيخ صالح بن أحمد اليمني المطري، ثم مسجد الجمعة وهو في طريق قباء على نحو ميل أو أقل من قباء عن يمين الذاهب من المدينة إليها، على الطريق التي تمر بين النخل. ومن مر على طريق الحرة الغربية فهو عن يساره[٢].

ومسجد الفضيخ وهو شرقي قباء على شفير الوادي، ومسجد بني قريظة قرب حرتهم الشرقية، ومسجد مشربة أم إبراهيم رضي الله عنها. وهو شمالي مسجد بني قريظة، ومسجد بني ظفر من الأوس شرقي البقيع بطريق الحرة الشرقية، ويعرف اليوم بمسجد البغلة، ومسجد الإجابة وهو

(١) نفس المرجع ص: ٧٥.

(٢) الرحلة / ص: ٢٤٨ الجزء الأول، وكان يعرف بثلاثة أسماء: مسجد الجمعة، ومسجد الوادي، ومسجد عاتكة. لكنه غلب عليه اسمه الأول: الجمعة، وبه يعرف اليوم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لبني معاوية بن مالك من الأوس، وهو شمال البقيع، قريب منه على يسار السالك إلى العريض بإزائه تلول هي آثار قرية بني معاوية[١]، ومسجد الفتح، ويقال له أيضاً مسجد الأحزاب (نسبة إلى وقعة الأحزاب أو الخندق) والمسجد الأعلى. ومسجد القبلتين، وهو لبني سلمة، وسمي بذلك لأن القبلة حولت فيه، وهو غربي بطحان وسلع قريب من العقيق في مكان مرتفع[٢]. ومسجد السقيا وهو على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن ويشرف على المدينة[٣] ومسجد ذباب، ويعرف اليوم بمسجد الراية، وهو على جبل صغير قريباً من سلع من شرقيه، قريباً من ثنية الوداع، على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام[٤].

ومن معالم المدينة المنورة التي تحظى باهتمام الرحالة جبل أحد، فقد وصفه وصفاً مهماً، حدد ما به من المشاهد والمساجد، كمشهد حمزة بن عبد المطلب، الذي بنى عليه "قبة عالية متقنة وبابه مصفح بالحديد، وحوله بناء متسع فيه بئر، وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح... وفي خارج المسجد بئر أخرى كبيرة، وبإزائها صفة مسجد وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج. وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك[٥].

(١) الرحلة / ص: ٢٤٩ الجزء الأول.
(٢) الرحلة /ص: ٢٥٠ الجزء الأول.
(٣) الرحلة /ص: ٢٥٣ الجزء الأول.
(٤) الرحلة /ص: ٢٥٣ الجزء الأول.
(٥) الرحلة /ص: ٢٥٤ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومن المساجد التي تزار بجبل أحد مسجد الفسح، ومسجد ركن جبل عينين الشرقي، وهو على قطعة من الجبل، ومسجد الوادي، ومسجد السابلة.

بعد ذلك ينتقل العياشي إلى ذكر الآبار والأودية بالمدينة المنورة، أولها بئر أريس الشهيرة، وهي في حديقة غرب مسجد قباء قريبة منه: " وماؤها غزير يسنى منه إلى بركة في الحديقة التي يوجد بها أنواع الفواكه والأشجار، وبها عنب كثير قلما يدخل أحد للزيارة في وقت العنب إلا ويشتريه ويأكله فيها، حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات. وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة والتفرج، وقد جعل لمائها نفقاً من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها "العين الزرقاء"، وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس. وهي بئر كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة منها بئر أريس، فصارت متبحرة يشجب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار، فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه، فأظهرت داخل المدينة في مناهل متعددة، وبنى لها بناء متقن يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء، متقنة الرصف، واسعة الممشى، منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم [1].

يليها بئر البصة، وبئر بضاعة، وبئر بيرحا، وبئر رومة وتسمى بئر عثمان، وبئر اليسيرة وتعرف كذلك ببئر العهن وهي في عوالي المدينة قريباً

(١) الرحلة /ص: ٢٦٥ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من مسجد بني قريظة، وعلى بابها حديقة حسنة ملك لبعض المغاربة[١]. وبئر وبئر غرس " فهذه الآبار السبعة هي المشهورة اليوم عند أهل المدينة. وقد نظمها الزين المراغي فيما أنشد عنه السيد في بيتين وهما:

إذا رمت آبار النبي بطيبة فعدتها سبع مقالاً بلا وهن
أريس وغرس رومة وبضاعة كذا بصة قل بيرحاء مع العهن[٢]

ويضيف العياشي بئرين آخرين، أحدهما بئر السقيا وهي على يسار السالك إلى بئر علي، وهي بالحرة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك، والثانية بئر زمزم، وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق. وسميت بهذا الاسم تشبيها لها بزمزم، وكانت إذ ذاك ملكاً لبعض المغاربة المجاورين[٣].

أما الأودية فيذكر منها وادي العقيق الشهير، وهو وادٍ كبير غربي المدينة وراء الحرة الغربية يأتي سيله من أماكن بعيدة. "وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المنتزهات من سالف الدهر، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة في كتب الأدباء. وقد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات، فخرج الناس على طبقاتهم، ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه، وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب وأقاموا به يوماً أو يومين[٤].

(١) الرحلة /ص: ٢٦٩ الجزء الأول.
(٢) الرحلة /ص: ٢٦٩ الجزء الأول.
(٣) الرحلة /ص: ٢٧٠ الجزء الأول.
(٤) الرحلة /ص: ٢٧٢ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم وادي بطحان وهو أحد الأودية الكبيرة بالمدينة، يلتقي مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسيال، أما وادي قناة فهو أعظم أودية المدينة سيلاً، ويسمى أيضاً بالشظاة[١]، وهناك أودية أخرى كوادي رانوناء ووادي مذينب، ووادي مهزور وهي كلها ترجع إلى بطحان أو إلى قناة[٢].

عادات أهل المدينة.

ومن الطريف أن العياشي سجل في رحلته عادات كثيرة اشتهر بها أهل المدينة في عصره، منها قيامهم بتنظيف الحرم الشريف استعداداً لموسم الحج، وذلك يوم السابع عشر من شهر ذي القعدة ويسمونه (الكنيس) " يتهيأون بذلك للموسم، لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن، وقدوم غائب، واجتماع الناس من الآفاق، واشتغال أهل المدينة بقبض الأوقاف والجرايات التي تأتيهم من الأوقاف، وذهاب من يرد النسك إلى مكة أو من يريد التجارة، فلا يبقى بالمدينة إلا قليل من الناس[٣].

ويحظى يوم الجمعة بعادات منها اجتماع الناس بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد. " فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد منهم قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محدقون بهم، ولهم أتباع يردون عليهم[٤].

(١) الرحلة /ص: ٢٧٣ الجزء الأول.

(٢) الرحلة /ص: ٢٧٣ الجزء الأول.

(٣) الرحلة/ ص: ٢٧٣ الجزء الأول.

(٤) الرحلة / ص: ٢٨٤ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومنها خروجهم للبقيع، ووضع الرياحين الكثيرة على القبور، خصوصا المشاهد المعلومة، وتكنيس المسجد النبوي الشريف كله، ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مزين بالذهب فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برايتين سوداوين من ديباج مزين أيضاً فيركزان على يمين المنبر وشماله وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجاً من ذلك النعت أيضاً. ويعلق أيضاً على أبواب الحجرة الشريفة. فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن، فيبتدئ مؤذن الرئيسية بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة آيات من القرآن، فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك، ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتلاوة في المآذن كلها، إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال، يقتسمون الوقت بذلك، فإذا قرب دخول الإمام قام أحد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي في وسط المسجد[١].

ومن عادة المدرسين بالمدينة أيضاً تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء والجمعة. وهو خلاف ما تعوده بالمغرب حيث كانت تعطل الدراسة يومي الخميس والجمعة[٢].

ومن عاداتهم أيضاً التهنئة بحلول الشهر الجديد، حيث يذهب كل واحد في أول يوم من كل شهر إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة، حتى يهنئه في منزله، كما إنهم يحرصون على إقامة الصلوات

(١) الرحلة / ص: ٢٨٦ الجزء الأول.

(٢) الرحلة / ص: ٢٨٧ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الخمس بالحرم الشريف في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي فيؤخره إلى قرب الإسفار[١].

ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد، فإذا كان ليلة الدخول أتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصدقائه وأقاربه، ومعهم الشموع، حتى يوقف به على باب المسجد بعد العشاء، فيدخل ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو فيخرج، ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها، عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تزف إلى زوجها، ويكون الدخول في بيت الزوج[٢].

ومن عاداتهم في التعامل بيعاً وشراء أنهم يسمون الأربعين مائدياً صرفاً، فيقولون عشرة أصرف وعشرين صرفاً، يعنون كل أربعين قيراطاً من قراريط الفضة المسكوكة، يعد الحرف كالمثقال في المغرب. ويطلقون على الدينار الذهبي شريفياً وسلطانياً، وعلى الريال الفضي قرشاً، والقيراط المسكوك محلقاً، والصاع ربعياً ولجزئيه كيلة [٣].

وكانت متاجرة أهل المدينة مع أعراب البادية لا تنقطع، حيث يجلب هؤلاء اللبن والجبن والسمن والغنم والحبوب والخضر والتمر والفواكه، ويشتريها منهم البرغازون – وسطاء منهم – ثم يعيدون بيعها لأهل المدينة بربح.

كما أن موسم الحج يعتبر من أهم أيام السنة رواجاً لتجار المدينة، وأن الأسعار فيه لا تخضع لمراقبة من السلطات المحلية " فلا سعر معلوم،

(١) الرحلة / ص: ٢٨٩ الجزء الأول.

(٢) الرحلة / ص: ٢٩٠ الجزء الأول.

(٣) الرحلة / ص: ٢٩٦ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولا مكيال وافٍ، ولا ميزان صحيح، كل يفعل ما يشاء، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك [١].

ولاحظ العياشي أن الأسعار مرتبطة كذلك بمواسم الأمطار، ترتفع في الجدب والقحط وتنخفض ربيعاً.

ولأهل المدينة ولع خاص بأكل اللحم، حتى إن من نسائهم من لا يطبخ غداء ولا عشاء إلا أن يكون لحماً، ولا يعرفون الطبخ بدونه، ولو أدى ذلك إلى بقائهم بلا غداء ولا عشاء. وهم أهل رفاهية وتوسع في المعيشة، ويلبسون الملابس الفاخرة، وتزيوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم لكثرة سكنى الأعاجم بها... وهم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام[٢].

ومن عاداتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة وينبع أن بالمدينة رجالاً يعرفهم غالباً الجمالون، فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم فيعقدون له الكراء مع صاحبه، ويتكفلون بما عسى أن يصدر من الجمال من غدر في الطريق بهروب أو مكر، ويسمى أحد هؤلاء المخرج، فلا يعقد أحد كراء إلا بحضرة أحدهم، وجلوسهم في الغالب بباب المصري، ويأخذون أجرة بسيطة من الجمال أو من المكري، وذلك دأبهم بمكة أيضاً [٣].

ولم ينس العياشي الحديث عن الفيضان الذي عرفته المدينة بسبب الأمطار الغزيرة التي سقطت في أواخر شهر جمادى الثانية سنة ١٠٧٤هـ /

(١) الرحلة / ص: ٢٩٦ الجزء الأول.

(٢) الرحلة / ص: ٣٠٢ -٣٠٣ / الجزء الأول.

(٣) الرحلة / ص: ٣٠١ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

١٦٦٣م، حيث غمرت المياه حصن المسجد النبوي الشريف، وأتى على الزرابي المبثوثة والحصر، وتسرب الماء إلى المنبر والمحراب النبوي، فأصبح المسجد كله عبارة عن بركة ماء، فاجتمع الناس لإخراج الماء من المسجد بالأسطال والأواني الكبار، فنجد في ذلك من رغب في الأجر... وعمل ذلك جماعة من أصحابنا المغاربة أعمالاً حسنة، وما فرغ الناس من إخراج الماء إلى قرب المغرب، فبات المسجد على حاله غير مفروش، وفي الغد بولغ في تنظيفه وغسله وكنسه، وأخبرنا ناس من أصحابنا الذين طالت إقامتهم بالحرمين أنهم ما شهدوا وقوع مثل ذلك، ولا سمعوا به فيما مضى[١].

ويسهر على خدمة الحرم العبيد الأغوات الموقوفين من طرف التجار والأمراء والعلماء، والآغا بلغتهم كناية عن الخصي من العبيد، وهم أهل خير وبركة، يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحرم والنقيب، والأربعون الكبار منهم يتقاضون أجراً من بيت المال ومن الأوقاف التي لهم بالمدينة أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، ويسمى ما سوى الأربعين (البطالين) ويشتغلون خارج المسجد النبوي، ولكل واحد منهم رتبة معلومة وشغل معلوم؛ وأكبرهم شيخ الحرم، وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر، ولا يأتي إلا من دار السلطان، ويليه النقيب ثم المستلم، وهو الذي يتولى قبض الصدقات، وما يهدى لهم أو للحجرة، وبيده مفاتيح الحجرة وحواصل الزيت والشمع[٢].

والأغوات لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف وتأديب من أساء فيه الأدب بلغط ورفع صوت أو نوم، وهم دائماً بالمسجد يتناوبون فيما

(١) الرحلة / ص: ٣٠٤ و ٣٠٥ الجزء الأول.

(٢) الرحلة / ص: ٣٠٥ الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بينهم على الخدمة ليل نهار، وأحكامهم بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولى عليهم ولا يعزل منهم إلا بأمر شيخهم، ولا يرث معهم بيت المال شيئاً إن مات أحدهم، إنما يتوارثون بينهم، ومن وجبت عليه عقوبة أو أدب منهم أدبوه من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية. ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة: السلطان الأعظم ملك الترك الموصوف بخادم الحرمين الشريفين، والسلطان زيد بن محسن الموصوف بحامي حمى الحرمين الشريفين، وأمير المدينة السيد الحسين بن حماد الموصوف بحامي حمى المدينة [1].

(١) الرحلة / ص: ٣٠٩ -٣١٠ / الجزء الأول.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة